جاك أوديبرتي

المسرحية الثالثة

نساء « الثور »

مسرحية من فصل واحد

العنوان الأصلي للمسرحية:

Jacques Audiberti

Les Femmes du Boeuf

ليست مقوّمات الكتابة أن ترسم فقط إشارات على الورق مستعيناً بريشة أو قلم، إشارات لا تولّد في ذهن القارئ، أو في صندوقه الدماغي، الطنين العقلي للكاتب فحسب، بل خيالات حيّةً أيضاً وألواناً وحتى أشكالاً من الأريج. وتجني ثم تطحن، بلا هوادة، ضمن فواصل الكتابة بحد ذاتها، العالم بأناسه ومخلوقاته وأزهاره، من أجل أن تحصل على ذلك الدقيق وعلى ذلك الأساس، الذي سينتقي الكاتب فوقه خيوطه وغرزات تجليّاته وحلقاتها . . .

لا أحد يكتب نثراً. ولا بدّ من جهد جبّار للخروج على الإيقاع المنتظم.

جاك أوديبرتي

الشخصيات:

«الثور»	Le Boeuf
الابن	Le Fils
مدام غورنتران	Madame Gontran
أميلي	Amélie
أصوات	Des Voix...

عرضت هذه المسرحية: نساء «الثور» في ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٤٨ على مسرح الكوميدي فرانسيز (قاعة اللوكسمبورغ) من إخراج جان دوبيكور، وصمّم الديكور والملابس م. بينيه مع لوي سينييه في دور «الثور»، وأندريه فالكون (الابن) ولين نور و(مدام غونترون) ودينيز بيزاني (أميلي) وجانين ديهيلي ونيلّي ديلماس (أصوات...).

قام جورج فلاتو بأداء دور «الثور» على موجات الإذاعة الفرنسية.

يجري المشهد بأكمله دونما انقطاع، في قرية من مقاطعة لانكدوك، في الطابق الأرضي من دار الجزّار، الواسعة جداً. تظهر في البداية مدام غونتران، وهي الوكيلة القيّمة على كل شيء، وإن تكن ريفيّة بكل معنى الكلمة، في صالة الدار أو القاعة المشتركة، بصحبة الشابة أميلي لافيد، وهي بنت إحدى بنات عمومة الجزّار لافيد.

مدام غونتران: الدكان كلّها والدار كلّها عابقتان برائحة الدم فقط. ولا يعنيني ذلك على نحو مباشر، إلاّ أنّي أودّ أن أسعى إلى تبديد تلك الرائحة. يقترح بعض الناس استخدام ماء جافيل مع الأشنان. أمّا الشمرة فسوف أقتصر على نبات القضاب المقطّع تقطيعاً جيداً مع الشُّمرة. لكن الشمرة أضحت نادرة الوجود حتى في فصل الصيف. فطراز حياة المدن بدأ يغزونا. نحن هنا، في باربينالس، عند آخر الخط الحديدي تماماً. أمّا درب العربات فيمضي إلى ما وراء الجبل. ها نحن نشيخ والأزهار تولّي، أزهار أيام شبابنا. إلى أين تمضي الأزهار؟ قد يستطيع سان فلوريمون أن يعرف ذلك،

لأنّ سان فلوريمون هو شفيع الأزهار . يبقى عندنا على كل حال البابا : ليون الثالث عشر . هذه حالنا على الدوام!

أميلي لافيد: شاهدته في الملحق المصوّر . كلّه بياض ببياض .

مدام غونتران: البابا يرتدي البياض بشكل دائم، يا صبيّة . إعلمي ذلك . ولقد شاهدتُ أنا من البابوات الكثير . أنا وأمي . . . فالأمور فيما بين العجائز تختلط .

أميلي: إلاّ أنّك لست بعجوز! . . .

مدام غونتران: إنّما يتولاّني إحساس أشدّ بالشيخوخة حين أنظر إليك، يا صغيرتي . . . فيوم جئتُ إلى هنا للمرة الأولى، كخيّاطة مياوِمة، كنتُ في الثامنة عشرة . أما خالك «الثور»، هكذا نحن ندعوه على كل حال، فكان في العاشرة . كان قد غدا حينئذ شخصيّة هامّة . أمّا يومي كخيّاطةٍ مياوِمَة، فقد امتدّ أربعين سنة .

أميلي: ولمّا ينتهِ، يا مدام غونتران .

مدام غونتران: قطعاً لا . . . ومن الناس من يُتوفّى سميناً، وآخرون يموتون هزيلين . أما أنا فلم يبق فيّ غير العظام . . . ولست أبغي إلاّ أن أزيل رائحة الدم هذه . فالمكان هنا حسبما يظهر هو الصالة . وليس أدل على

ذلك من تلك الزوارق المعروضة في أقفاص زجاجية، وهذه المطرّزات الصينية، وصورة الماريشال فيكتور. والدم عند الجزّار من طبيعة الأشياء. بل قانون الأشياء. أما أن يجيء الدم حتى يعمّ الصالة. فإن ذلك يملؤني غماً. هذا وإن خالك لأكبر جزّار في المقاطعة، لا بل هو الأكبر والأضخم. إنه يُطعمُ أكثر من أربعين قرية لحماً. أما خيوله التي تقوم بنقل الذبائح فهي جياد نشيطة يقظة، تتغذّى على النخالة النقيّة. وأما اسمه فالمعلم لافيد. وكلمة لافيد في لغة اللانكدوك تعني النعجة. فكيف ينطبق اسم النعجة عليه! لقد أجادوا حين اختاروا لقب «الثور» . . . ثور باربينالس . . . بل إنّ لقب الثور صغير جداً عليه وفائق الرقّة أيضاً . . . ينبغي أن يلقب بالغول أو بالرعد الهادر . . . واعلمي بادئ ذي بدء أنه يزن مئة وأربعين كليو غراماً.

أميلي: وممّ توفيت زوجته؟

مدام غونتران: زوجته؟ . . . بل قولي زوجاته. لقد تزوّج ثلاثاً. وتُوُفّينَ منه يا ابنتي. ولكنّ الغلطة ليست غلطته، فرِقّةُ قلبه ما لها من مثيل. لكنّ دماءه فوّارة وأمزجته فائقة العنف. إن فخذيك معاً، يا حلوتي، يكادان

يقاربان ثخن رقبته. وعندما يكون خارجاً تبدأ الشمس تتعرّق. وإذا زَفَرَ هبّتِ الريح، هبّت الريح على البحر. إن على رجلٍ من هذا الطراز، مهما كان سريره كبيراً، أن ينام فيه وحده... فإيّةامرأة بجانبه سوف تختنق... إنّه يمتصّ الهواء كله... قد تدركين ما أقول... وقد لا تفقهين منه شيئاً... لو أنك ترينه كيف يقتل ثوراً بصفعة واحدة. لست أدري لِمَ أروي لك...

(صوت خوار، وصرير أرضيّة خشبيّة تتكسّر).

أميلي: ولكن، ما هذا؟

مدام غونتران: ذلك هو المسكين. إنه ينهض. فهووحيد ولا بدّ أن يكون في هذه الليلة قد بكى. ذلك أنه يعيش حياة رهبنة رغم ما هو عليه من موفو الصحّة والدم الفوّار...

أميلي: لم أصل إلاّ بالأمس. لكن يبدو لي أن الدار ملأى بالناس وتعجّ بالنساء.

مدام غونتران: إنّ النساء اللواتي يقضي عليهن «الثور» فيزيلهن من قدّامه، ما يلبثن أن ينبتن من على جوانبه. فأمّه قدماتت. ماتت وهي تراه على تلك الضخامة فيما

هي صغيرة جداً. كان يكبر سناً ووزناً، أما هي، فيا لها من مسكينة! كان عليها أن تعود القهقرى بعصابة رأسها وعينيها الزرقاوين وقمطتها المشتراة بأربعة فلوس. وأن تبعد رأسها لتتمكن من رؤيته بأكمله. وعلى قدر ما كان ينتفخ كانت تذوب. كانت تمتلئ به زهواً لكنها تذوب من نفسها خجلاً. أمّا حين تمعن النظر فيه، فيتراءى لها أنها قد أفرطت في الطعام. وتظلّ مكتوفة اليدين. . . وفي نهاية الأمر حللت أنا محلّها. لقد أنجبت له كل واحدة من نسائه ثلاث بنات. وتناهز البكر، ماريا، السادسة والثلاثين. أما الصغرى لويزيت فقد جدّدت للتوّ مناولتها. فيكون العدد إحدى عشرة.

أميلي: يكون إحدى عشرة؟

مدام غونتران: عدّي. بنات خالك التسع وأنا وابنتي، يكون العدد إحدى عشرة. بوسعك أن تعدّي. فأنا أيضاً عندي بنت. وهي جافّة بعض الشيء، لأنّ الأفضل بالنسبة للنساء، كما تعلمين، أن يقوم المرء بسقايتهنّ، أما هي فتتولّى ترطيب الأزهار على مذبح الكنيسة.

أميلي: إحدى عشرة امرأة في دار واحدة. إنّ هذا ليعني الكثير من الأعباء والهموم.

مدام غونتران: إحدى عشرة امرأة؟ إنّك لتهذرين. . . قلت لك إن خالك أعظم جزّار في المقاطعة. عَدَدْنا نحن هنا في الدار ثلاثون امرأة من غير أن نعدّ صور المتوفيات المسكينات. وُضِعَت البُنَيّات أولاً في مدرسة داخلية. أما الآن وقد كَبُرْنَ فكلّهن مقيمات عندنا هنا. لكن «الثور» مزهوّ. فلم يرضَ لهنّ الخوض في الدماء والحسابات. وهن يُمضين الوقت في المطالعة والخياطة والغناء. وعندنا هنا موظفة للمحاسبة، وطاهية وكوّاءة وخادمتان وثلاث عاملات في محل القصابة. ولكن ليس هذا كل شيء! ليس هذا كل شيء. حين وصل أخوه، خالك الرقيب، قادماً من تونس، تعانقا. تعانق الجزّار والرقيب. وما كان من الرقيب المسكين، والوسام معلّق على صدره، إلا أن سقط ميتاً. لقد كان متزوّجاً. فأخذنا في كنفنا زوجته ميلينا وابنته أونورين. إحدى وعشرون. بلغ العدد إحدى وعشرين. إنتِ تتابعين؟

أميلي: المؤسف أنني لم أحمل معي قلمي الفضّي الجميل لأدوّن الملاحظات.

مدام غونتران: لاحاجة للقلم. فالثور والدار في قلبي وفي رأسي. . . أما الآن وبعد أن شاء سوء الحظ أن يطالكمُ

الحداد، وبعد أن ارتحلت أمكما إلى العالم الجديد، فأبحرت بعد زواجها الثاني من ميناء دنكرك في الشمال، بادر «الثور» فكفلكما أنت وأختك فجئتما إلى هنا. إيه! يا لهُ من جل شهم!

أميلي: اثنتان وعشرون فثلاث وعشرون.

مدام غونتران: الآنسة الموظفة في البريد ومعلّمة المدرسة تقيمان عندنا. وهو يحشوهما بضلعيّات[1] حمر مثل الجمر.

أميلي: أربع وعشرون فخمس وعشرون.

مدام غونتران: ينبغي أن نذكر أنّ المعلمة، وقد رتعت في السعادة، أبقت على أمها معها. الأمهات! البنات! الأمهات! البنات! أن ذلك لأشبه ما يكوت بخرير الجداول. (تضيف متباهية) ست وعشرون.

أميلي: طيّب... ليس العدد أكثر من ست وعشرين.

مدام غونتران: وتلك السيدة القادمة من باريس والتي تتقن التلوين. لقد حلّت عندنا ومعها وصيفتها أو الناطقة باسمها على حدّ تعبيرها. حاملة معها ألوانها من كل شكل وضرب. وقد حسبت بيتنا فندقاً. ربما كان عليّ

(١) ضلعيّة: بضعةٌ ما بين أضلاع الذبيحة. (م)

أن أطردها خارجاً؟ . . . ها إنّ العدد قد اكتمل . . . إنني على حقّ حين أقول إنّنا ثلاثون بلهاء داخل حظيرة «الثور».

أميلي: تعدادك خاطئ، يا مدام غونتران، فقد بلغنا ثمان وعشرين.

مدام غونتران: طيب، يا بنيّة! أضيفي الكلبة، تلك التي يدعوها «روسجوا».

أميلي: الكلبة؟ في هذه المرة . . . أخيراً . . . لكن، يا أماه! لم يبلغ العدد إلاّ تسعاً وعشرين.

مدام غونتران: تريد الفتيات تصديق كلّ شيء دفعة واحدة. الرقم ثلاثون . . .

أميلي: إنما الرقم ثلاثون هو الذي يروق لي. فمن هو؟ (يسمع صوت غناء) هل الرقم ثلاثون هو الذي يغنّي؟

مدام غونتران: كلا . . . بل الرقم أربعة عشر . . . إنها فيرجيني . . . ووقع الخطى على الدرج؟ . . . إنها المعلمة . . . وذاك الباب الذي يصفق؟ . . . الثلاث في السرير الثالث . . . وتلك الناي؟ إنها لوسيين . . . لقد احترق حلقها قبل عشرة أعوام حين شربت زيت التربنتين. قد تكون أجمل واحدة من بين الجميع. لقد

اعتقدت المسكينة أنّه عصير الليمون. إنّها قوية قوّة رجل، وكل ما فيها ينطق بالصلابة، نهداها، وركاها، نظرتها الكفيلة بجعل «الثور» يغضّ الطرف، أما حنجرتها فواهية مثل شبكة العنكبوت. إنْ تكلّمت ماتت. وهي الآن تجيد العزف على الناي، والعزف هو لغتها الوحيدة. (تُسمع أغان ونداءات وضوضاء) إنها خادمة المائدة... وموظّفة البريد... صانعة السُّجُق... ووصيفة المرأة التي ترسم... والكلبة التي تحمل، إن كنت تذكرين، الرقم تسعة وعشرين...

أميلي: يا مدام غونتران، يا مدام غونتران، والرقم ثلاثون! إنّي أتحرّق شوقاً لطول الانتظار. من هي المرأة الأخيرة من بين النساء في دار خالي؟

مدام غونتران: المرأة الأخيرة هي الابن، إبن «الثور». إبن خالك ليس امرأة لكنه ليس رجلاً. إنّه يحلم. ويمشي. ويتثنّى في مشيته على هذا النحو كمن هو عازم على البدء برقصة الخطى الثلاث. لكنه لا يرقص أبداً. أما عمره فعشرون عاماً.

أميلي: إنه من عمري.

مدام غونتران: وهو هشّ الدماغ.

أميلي : وماذا يعمل؟

مدام غونتران : لم يؤدِّ يوماً من عمل قط . فيقوم أحياناً باختيار شجرة ويبدأ الدوران من حولها . وقبل تسعة شهور طلب أن يتحدث إلى «الثور» . وكان شكلهما مضحكاً ، فالواحد شديد الضخامة والآخر نحيل جداً . لقد قال للثور : «أبتاه ، أريد القيام بالحراسة . أريد أن أرعى القطيع . فأنا الكبير وينبغي أن أحظى بالشهرة . فعينّي راعياً للخراف . وأراد «الثور» أن يقول له : «أنت مجنون» . لكنه تدارك نفسه . وانتفخت أوداجه حتى كادت عروف جبهته تتفجّر . وواصل الصغير كلامه قائلاً : «أعطني الخراف لأتولّى حراستها . وسوف أتقن ذلك على أكمل وجه . . . وها إنّي أحمل سلاحي والوسام أيضاً» . ولقد تأثّر «الثور» من غير شك ، وهو يرى ابنه المسكين الأبله وقد عزم على أن يكون ذا فائدة . فأخذ نصيحة الطبيب من جهة ونصيحة مقلاة الشياطين ، وأقصد بذلك نفسي ، من جهة أخرى . فقلّبنا المسألة من كافة وجوهها حتى استقر بنا الرأي على تركيب ألواح زجاجيّة للكوخ الجبلي المتداعي وأرسلنا الولد إلى هناك على نحو ما كان يرغب ، من بعد أن

جهّزنا المكان بسرير ممتاز مع بعض المعلّبات، ومعه الخراف الخمسون والكلبان وغلام قويّ الشكيمة لأجل الحالات الطارئة. وفي غضون يومين، صرف الابن الغلامَ قائلاً إنه قد غدا الآن راعياً حقيقياً وليس بحاجة لأحد. فأخذ «الثور» في البداية يغمغم ساخطاً لكنّه ما لبث أن تفكّر في الأمر. وخلاصة القول إنّ الابن مقيم في الجبل، صوب «لوزير»، ناحية الموقع الذي قدمت منه تماماً. . . أحياناً يبعث «الثور» خفية برجل، ليراقب الابن من بعيد، كذلك نستعلم عنه بواسطة الصيادين ورجال الدرك.

أميلي: ولكن ما هذه الرائحة المنبعثة، يا مدام غونتران؟ إنها تعبق بشدّة أكثر فأكثر. . .

مدام غونتران: وماذا تريدين للرائحة المنبعثة من عند الجزار أن تكون. إنها رائحة الدم. ومعها أيضاً رائحة الأجساد، رائحة الأجساد الجميلة للأوانس والسيّدات وجسدك أنت أيضاً.

أميلي: لكنَ هناك أيضاً رائحة أخرى. . . تشبه رائحة الخشب المحروق. . . رائحة الخبز وهو في الفرن. . . والشمرة. . . وماء الكولونيا. . . والطبخ الدسم. والعفونة.

(تسمع ضوضاء كبيرة فوق الدرج).

مدام غونتران: لا تنشغلي. إنها رائحة سيّدي. فها هو «الثور» ينزل. (وقع شديد للخطى).

(يدخل المعلم لافيد، الذي يطلقون عليه لقب «الثور» شديد الضخامة، هائل الجثّة طيّب القلب).

«الثور»: طاب نهاركم جميعاً. ها أنذا. . . هل كل شيء على ما يرام، يا اشبينتي؟ أما أنت، يا ابنة أختي، فأحيّيك. . . كلا، لا تقتربي. . . إذ يمكن لزفرتي أن ترمي بك أرضاً. . . هل نمت نوماً مريحاً؟ أنا أقول لك، أنت هنا في بيتك. أنت في منزلك. أمّك هي أختي. وأنت ابنتي. هذا كل شيء. أنا أحياناً أصرخ. . . لكن لا تخافي. . . لا ينبغي أن تخافي أبداً. . . إنّ التي تتولى الإدارة من بعدي هنا، هي اشبينتي مدام غونتران، ولا بد أنها قالت لك ذلك. . . هل تعرفين كل الذين يقيمون هنا؟

أميلي: لم يتوفّر لديّ الوقت بعد. ألسنا هنا كثيرات؟ ثلاثون على ما يبدو. . .

الثور: إيه، أجل. . . ذلك هو قدري. أتزوّج وأترمّل وأجد نفسي طافحاً بالنساء ووحيداً. أحياناً أبكي. . . إنّ

دموع الجزّار لا تؤثر في أحد، أما أنا فأعرف كم عبؤها ثقيل. أخيراً... سوف أعطيك كل ما تحتاجين. وتغادريننا حين يروق لك. وتلبثين هنا بمقدار ما تشائين. ولا يسعني أن أقول ما هو أفضل.

أميلي: شكراً، يا خالاه. أنت خيّر وشهم وأنا مرتبكة جداً...

الثور: قوّتي فائقة، تلك هي المصيبة، مع أنّني لا آكل إلاّ الأعشاب والثوم.

أميلي: يا خالي، هلاّ حدّثتني على الفتى مرسلان ابن خالي، الذي هو من نفس سنّي؟... أذكر، حين كنا صغاراً جداً وشكلنا مضحك، قبل عشرة أعوام أو اثنتي عشر، أنني رأيته في بابينالس يوم عيد الرب. وكان يحمل على كتفه جلد خروف.

مدام غونتران: يا صغيرة، كان عليك الانتظار حتى يبادر خالك أولاً فيحدّثك عليه.

الثور: دعيها... دعيها... إنها على حق في أن تبوح صراحة بما في نفسها. إن ابني يقوم بدور الأبله. إنه يعمل راعياً. هذا هو الواقع. قد تجدين في هذه القرية وفي القرى الأخرى، أبناء بقالين أو قصّابين عاديين،

وقد تقدموا للبكالوريا كي يصيروا عقداء. أما ابني أنا، فقد أصبح راعياً. وليس في ذلك ما يجعلني أحمر خجلاً. لكن من غير المعقول أن أقول إنني سعيد بهذا الواقع، أليس كذلك؟ علماً بأنّ كل شيء كان في متناول يده. . . لكن ما العمل؟ فالقوة بكاملها والهيبة كلها واللحم كله، احتفظتُ بها لنفسي، أنا الأب. أما هو فليس لديه من شيء ولا يسري في عروقه إلاّ الدّخان.

أميلي: ألا كم بودّي لو أراه! أين هو؟

الثور: إنه يقيم عادة في ناحية ما، هنالك فوق الصخور، صوب «لوزير» من جهة بريبولس، أي من جيث قدمت تماماً.

أميلي: صحيح أن في تلك النواحي بعض مواقع الرعيان. وليس مستبعداً أن أكون لقيتُ ابن خالي هناك من غير أن أعرفه. بل إنّ واحداً من أولئك الرعيان قد بادلني الحديث. (تقول بحنان) إنه راعٍ وسيم وشاحب جداً وقد استمتعت بلقائه أيّما استمتاع. وأعطاني وردة بلون حجارة الينبوع.

الثور: أما راعينا نحن، فسوف ترينه اليوم وفي هذا الصباح.

لقـد أرسلت إلى الجـبل بمن يحلّ مـحلّه يومين. أمـا والعـجوز سيباستيان أمسى عـاجـزاً عن الوقوف على قدميه فقد استأجرت راعياً لهذا الغرض . فأنا بحاجة للصغير كي يأتي للتوقيع عند الكاتب بالعدل. ذلك أنّ الكاتب بالعدل والمعلّم يرهقـان دماغي بنصوصـهما. ولقد أعطاني الصغير كلّ الوكالات التي طلبتها . ناهيك بأنّني وإيّاه غير منفصلين. لكنّ الأعمال تتضمّن دوماً بعض النصوص. وسوف يكون على الصغير المسكين أن يأتي ثم يقفل عـائداً. وإن كـانت تروق لك رؤيتـه فسوف ترينه. إنّه ليس وسيماً على كل حال. أما أنا، فالضيق يستبدّ بي وأنا أراه راعياً، حتى أوشكت أن ألفظ أنفاسي رغم صحّتي وسُمنتي.

مدام غونتران: يا سيّدتي العذراء! ماذا أرى في الفناء! إنه هو. لا بدّ أن يكون قد سرى الليل بطوله.

أميلي: ألا يشعر بالخوف. أما أن يمشي وحيداً في الجبل، طول الليل. . .

الثور: يا أولياء الله! هذا هو! إنّه الولد. . . إذا ما اقترب منّي مع ما هو عليه من هشاشة فسوف أطرحه أرضاً لمجرّد وجودي بقربه. أما إذا لم أكن موجوداً أو كففت عن الوجود. . . فسوف أتخمّر، وأتبدّد.

أميلي (مفعمة بالسرور): إنه يرتدي معطفاً أزرق اللون. ويحمل بيده غصناً مزهراً... وذاك خروف يتبعه وعلى جبهته شيء من القش.

مدام غونتران: يبدو لي أنه قد كبر.

الثور: يا اشبينتي، قو... قولي رأيك، هل أستقبله على الفور؟ أتعتقدين أنه ليس من خطر عليه؟ إنه فرخ صغير بلا حماية. بل هو بُنَيَّةٌ بلا شارب.

مدام غونتران: إنه عشير الصخور. وهي تمنحه القوّة. لا تخش شيئاً، إيّها المعلم. فهو لن يشعر بالخوف منك.

الثور: انتبهوا.

(الابن يدخل)

الابن: أسلّم على الجميع. وصلت من عند خرافي. خرافي على أحسن ما يرام، وأنا كذلك. من عساها تكون هذه الآنسة الجديدة تماماً؟.

الثور: هذه أميلي ابنة عمتك، أميلي لافيد، من منطقة البريبولس. لقد ارتحلت أمّها المسكينة مع الشّمول التي هي عروس الموت. والمسألة مسألة عشق... فلا تتعمّق أكثر.

أميلي: يا ابن الخال، لقد لعبنا لعبة البناء يوم كنّا نأكل سوياً خبز الأبازير. ألا تتذكّر؟

الابن: آه! الذاكرة بالنسبة لي هي على نحو ما تعلمين . . . وعقلي خفيف . . . لكنّي لا أجد في ذلك ما يضيرني .

الثور: وماذا الآن، أيّها الصغير؟ هل من جديد في الجبل؟ ألا تشعر بالبرد؟ وهل لديك كل ما يلزم؟ لقد طلبت أن يزوّدوك بشيء من شراب الحديد والسكر الأحمر والأخفاف الدافئة . . . وأنت على كل حال لم تنزل سيراً على قدميك؟

الابن: كلاّ . . . فقد ركبت العربة فأوصلتني إلى لاغاريغ .

الثور: هلاّ قُلتَ لي . . . لا، لا، إبقي يا أميلي . . . بوسعكِ أن تسمعي . . . أنت من العائلة . . . هلاّ قلتَ لي، ولاَ تنزعج إن كنتُ لا أُعبّرُ عن الأشياء تعبيراً حسناً، فهذا الحملُ الثقيل من الدم المحتقن في حلقي يضايقني أحياناً، إن كنتَ عازماً على المضيّ في حراسة خرافك فترة أطول؟ تبدو نظراتك أكثر ثباتاً مما سبق ويداك أكبر. فالهواء النقي عاد عليك بالنفع . . . ألست راغباً . . . حاول أن تفهم الحياة قليلاً . . . أنا ذو مكانة مرموقة . . . إنّ رجلاً مثلي . . . لا يشرّفه أبداً أن تكون راعياً . . . وفي آخر المطاف . . . لِمَ لا تتزوّج؟ أصبحت شاباً بالغاً . وبرهنت على رجولتك . وعرفت كيف

تتحمّل المسؤوليات. وليس في المقاطعة كلها عائلة واحدة تبدي تردداً حيال الانتساب إلينا.

الابن: إنّ خرافي تتولّى حمايتي أكثر مما أتولّى حمايتها. وهي لن تسمح لأيّة أنثى إنسان بالاقتراب. وأنا في الأعالي، وسط النجوم على أحسن ما يرام.

الثور: لكن بحقّ السماء! الزّمن يمضي، أيّها الراعي اللعين! والطبيعة... حين تُمضي أنت جلّ وقتك في الطبيعة... إلا تتحدث الطبيعة إليك؟ لم يُصنع الزواج للكلاب ولا للجبابرة. لكن أنت... أمّا وأنا مُرتَهَنٌ على نحو ما أنا عليه بسبب طبعي العنيف، فإنّ من الممكن أن أمضي في سبيلي بين لحظة وأخرى. عندئذ تجد نفسك أمام الأثاث والممتلكات والأعمال، ومصالحي في الجزائر والمكسيك، والإيجارات... أنت وحدك ستغوص في ذلك كلّه وتغرق... تزوّج، يا وليدي، تزوّج... فالرعاة، والعزوبة! ذلك شيء لم يعد مفهوماً. تزوّج، ما دمت قادراً على الزواج، لا سيما وأنك في مثل خفّة المزمار. (ينتحب). وسوف تكونان معاً، أنت وامرأتك، عصفورين، يستطيع أيّ غصن أن يحملهما.

الابن: أبتاه الثور، أنا لم أقل قط ولم أفعل البتة ما يمكن أن يسوءك. لكن عليك أن تعرف حقاً من أنا. النساء، ها، ها، ها، ها! ما عساي أن أفعل بهن؟ الدار هنا طافحة بهن وتفوح منها رائحة دم نتنة. فالدم يسيل أينما كان. أما هنالك بين الصخور فليس غير الشمس والهواء النقي. كل حجر وفوقها خيط صغير من نور.

الثور: أعرف حق المعرفة ذلك الموّال. أعرفه... ناهيك بأنّك لست راعياً حقيقياً. إذ يتوفّر لديك كلّ ما يلزمك حتى نبيذ البوردو ولسان القط[1]. فإيّاك أن يستبدّ بأبيك الغضب...

(يزفر بشدة)

الابن: أبتاه، اسمعني. لا أريد من امرأة... فأنا أعرف حوريّة.

الثور: تعرف حوريّة؟

الابن: أعرف حوريّة، أجل. حوريّة حسناء.

الثور: حوريّة... ألست بعض الشيء.

الابن: ليس بك من حاجة لأن تتعوّذ فتلمس جبهتك. أنا أعرف حوريّة.

---

(١) بسكويت طويل. (م)

الثور: وما معنى قولك هذا؟

الابن: وليست هي نفسها في كل مرة. فأنا أراها من بعيد في ثوبها الأبيض الذي يتحوّل إلى الأزرق أو الأسود، حسب النهار، بل حتى إلى الأخضر، مزيناً بشقائق النعمان الحمراء. وهي تقترب من الكوخ الجبلي مقبلة من الدروب الصعبة. فترتفع يدها... على هذا النحو... من بعيد. وأهبّ أنا لملاقاتها، أما حين أصل فأجدها قد طارت وسط رنين جلاجل... مثل جلاجل البريك[1] تماماً... وأجد مكان قدميها أربع حبّات من الفراولة موضوعة فوق ورقة كرمة. أو أجد ثلاث زهرات لؤلؤية مثل زهرة الربيع التي تنمو هنا في حديقتنا.

الثور: يا للولد المسكين... يا للمعوّق المسكين... سيتوجب علينا الذهاب به إلى طبيب في مونبولييه.

الابن: وذات مرة تركت لي الحورية ساعة، وهي ساعة ذهبية صغيرة.

الثور: هل تريد أن تعرف حقيقة نفسك؟ أنت أحمق. أفضّل أن أقول لك ذلك. ولا يهمّني إنْ كنتَ ستتألّم.

---

(١) عربة بأربع عجلات يجرّها جوادان.

الابن: أما أنا. فآكل حبّات الفراولة وآخذ الزهرات اللؤلؤية وأرقد فوق الصخرة وأستسلم للنوم. لكني، قبل ذلك، أضع إلى جانبي وردة ينبوع من الحجر الملوّن هدية للحورية. وحين أستيقظ تكون الوردة قد اختفت. وهذا دليل على أن الحورية رجعت. كما أنني أحسّ على فمي بنكهة الياسمين. وتكون يداي عابقتين برائحة المسحوق، مسحوق الرز، وعلى جسدي كلّه...

الثور: يا وليدي المسكين.

الابن: ماذا! «يا وليدي المسكين». «لكن ماذا بشأن الساعة؟ ساعة الحورية؟ هل تعتبرها هزلاً؟ أليس لها من دلالة؟ هاك، خذ الساعة وانظر إليها.

الثور: هات لأرى. أين عثرت على هذه؟

الابن: الحورية...

الثور: صه! ليأخذك الشيطان أنت وحوريتك... فهل أضحيتُ أنا المجنون في نهاية المطاف؟

الابن: ولكن ليست هذه الساعة وحدها فقط!

الثور: ليست هذه الساعة وحدها فقط؟ ماذا تقصد بقولك هذا؟

الابن : هذا مفهوم .

الثور : تعال . أرني ما في جيوبك! أفرغ جيوبك! هيا أسرع، قبل أن يفور دمي . ما هذا؟ . . . مقراض للأظافير؟ . . . وقلم من الفضة . ومشط . وشيء لتزيين الوجه . . .

الابن : هذه اسمها رشاشة بودرة . فالحورية باحت لي بذلك .

الثور : ورباطة ساق زرقاء . ورافعة للنهدين من علامة سان جورج . . . وقصائد شعرية موجّهة لك، وأنت أيها التنبل لا تجيد الكتابة! ومشبك! . . . وجورب من الحرير . . . لا شيء إذن غير اللوازم النسائية! . . . ولكن، ألف لعنة على إبليس! هذا هو المشبك الذي أهديته أنا للمحاسبة بمناسبة يوم عيدها . . . والساعة تذكّرتها الآن . . . إنها ساعة المستخدمة في البريد . . . إيه! فالمسألة كلها قذارات في قذارات! . . .

مدام غونتران : أيها «الثور»، على رسلك، حاذر أن يتعكّر مزاجك . . . أما المشابك والساعات فمتوفرة لدى البائع، كما تعلم . . .

الابن : لكنّ ذلك كله ليس من عند البائع . فالحوريات . . .

الثور : آه . إذا ما واصلتَ أنت الكلام فسوف أطيح برأسك .

ولقد صرعتُ، كما تعلم، من هم أقوى شكيمة منك بكثير. فحاذر أن تحيد عن الصواب لأنني لم أتغير. . . (ينتحب) أنا الذي أعيش هنا وحيداً بلا امرأة، وحولي من النساء ثلاثون، لكنّهن للهزل فقط. وجلّ ما يفعلنه، هو الإنفاق علي حسابي، سواءٌ كنّ بناتي أم بنات أخي وأخواتي أم كلّ اللواتي يرغبن في ذلك. وبينما أهيم أنا مضنىً في الصحراء، يدّعي هو، هذا الماجن، هذا العربيد، هذا القوّاد، أنه يريد أن يصبح راعياً، لتقوم من بعد نساء داري كلّهن، واحدة في إثر أخرى، باللحاق به وملاقاته هناك فوق المرج.

مدام غونتران: بين الصخور. . .

الثور: فوق المرج! إذا ما بادرته بصفعة، قضيت عليه. وذا ما ارتدعتُ، لفظتُ أنفاسي من الغيظ.

الابن، بعناد: إنها حورية. إنها حورية. متغيّرة وحسناء. إنما أنا أقول الحقيقة.

مدام غونتران: أكظم غيظك، أيها «الثور». فالمسألة ليست بذات قيمة. ولن يفيدك الغضب في شيء. فهو ما يزال فتياً.

الثور: وأنا، ألست بدروي فتياً، مع كل ما في عروقي من دم،

وما يعتمل في جسدي من رومستيك[1]؟ قُتوَّتي كامنة هنا وهنا وهنا. إنها في جسدي كله. إنها تخنقني. إنها تقتلني. إنها . . . أنا . . . أما هو، هذا القذر، فبينما أنا أرسل إليه النبيذ الفاخر والأسماك الشهية، بل مدفأة للأقدام أيضاً، إذ يستقبل نسائي، ولا يقدّم من نفعٍ إلا النظر إلى القمر. إنّ واحدة من أشدّ سورات غضبي قد بدأت.

الابن: أنا راعٍ إلى حد ما، هذه حقيقة. أقصد أنّي على شيء من البساطة. لكنني يا أبتي، لا أريد مع ذلك أن يستبدّ بك الغضب . . . أؤكّد لك إنها حورية . . . أقسم لك على ذلك . . . حورية حقيقية . . . تظهر مساءً، أو صباحاً، حسب الظروف . . . أما أنا، فلا دخل لي في ذلك . . . جلّ ما أعرفه، أنها تأتي. وأن ذراعيها تفوحان برائحة عجينة النوغا[2] البيضاء. وأنّ ساقيها مثل جداول من لبن. وأنّ مجرّد التفكير في ذلك . . .

الثور: يا لغضبي الشديد، يا لغيظي، يا لفوران دمي! لا، لن تمرّ المسألة هكذا! فهؤلاء الحوريات كلهن، والنساء

(١) رومستيك – قطعة لحم من كفل البقرة.

(٢) نوغا: حلوى بيضاء معجونة بالفستق والجوز.

كلهن، والفتيان كلهن قد سخرن مني على ما يبدو. وما من واحدة، ليس هنا من واحدة تستطيع أن تلومني على شيء... أيّ شيء... لا بكلمة... ولا بحركة... أما هو، في تلك الأثناء. لكن سيعلم الجميع من أنا... الأب! الثور! رب البيت!... هلّموا! الجميع إلى الأسفل. (يصيح ناحية الدرج) فلينحدرن جميعهنّ، جميعهنّ! الباريسية مع ألوانها! البنات، بنات العمومة، المقيمات، المستخدمات! المركب كلّه! المركب كلّه!

(تتجاوب أصوات النساء، يقطعها نشيد الناي للفتاة الخرساء)

ماذا يجري؟ إنه هو، إنه الابن! ولكن ما الذي حصل؟ الابن هنا... أنا عليّ أن أذهب إلى مدرستي... لا يسعني أن أتأخّر... لا وقت لدميّ الآن لذلك... السيد لافيد في سورة غضب عارم.

الثور: إصغينَ، يا زمرةً من... أتحدثُ إليكنَّ بادئ الأمر... وأنا في حالة غضب عارم... أنتنّ عصابة من... من...

صوت الباريسية: لكن أستميحك عذراً... ماذا دهاك؟ أنا لا أحتمل.

الثور: أنتِ، أيتها الباريسية، تقيمين عندي، فيما بيننا، ولم أعرف حتى الآن شكل ما تحملينه من مال. ولا ألومك على ذلك، لكنّك سوف تتحملين ما تتحملينه. فهنا، أنا الكل بالكل. إذن. . . الشابات. . . والمسنّات. . . والسمراوات. . . والأخريات. . . وحتى الكلبة، آه! روسجوا، كم اشتقت إليك، طول يومين في الشهر الأخير. . . إذا. . . الجبل. . . ماذا؟ إلى هناك أذن كنتنّ تتوجّهن. الآن فهمت. . . فهمت. . . فعلى الدوام، كانت واحدة متغيبة. . . فإنتِ، يا معلمة المدرسة. لا تختبئي وراء لداتكِ، لقد ذهبتِ إلى الجبل، بالتأكيد.

صوت: كان ذلك ضرورياً. كنت أُعِدُّ دفتر الأعشاب. وهو مقرر في المنهاج.

الثور: وأنتِ يا عاملة البريد، أجيبي!

صوت: يوم الأربعاء الماضي. . . إيه! طيّب. . . أصيب الساعي بالتواء مفصلي. . . وجاءت رزمة بريدية لمزرعة البلوطات الأربع. عندئذ سلكت الدرب.

الثور: لا داعي للكلام على الباريسية. فلديها كل الأعذار بسبب مشاهد الغروب. وأنتِ، أيتها المحاسبة.

صوت: يوم الأحد الماضي، وأنا أُعدِّدُ الغيمات، تحت تأثير العادة! وإذ بي قد وصلت. . .

الثور: طيّب! لا بأس. . . وأنت أيتها الخياطة؟

صوت: الريح سلكتني[1]. (حولت وجهتي).

الثور: وأنتِ، يا ماريا؟

صوت: المطر. . .

الثور: وأنتِ، يا ناتالي؟

صوت: فكرة. . .

الثور: وأنتِ؟ أجل، أنتِ يا صانعة السجق. بذراعيك اللتين تشبهان السجق؟

صوت: زهر الجنتيانا. . . وأزهار الربيع.

الثور: وأنتِ؟

صوت: حلم. . .

الثور: وأنتِ

صوت: عزف على الناي.

الثور: وأنتِ؟

صوت: ربما. . .

الثور: وأنتِ؟

---

(١) في الكلام تورية خاصة باللغة الفرنسية. لأن الفعل aiguiller يعني تسليك إبرة الخياطة، ويعني أيضاً تحويل الاتجاه. (م).

صوت: أربع مرات. . .

الثور: أربع مرات! وأنتِ؟

صوت: حتى أتعلّم. . .

الثور: وأنتِ؟

صوت: حتى أنسى. . .

الثور: وأنتِ؟

صوت: كل ليلة. . .

الثور: وأنتِ، يا فاني الكوّاءة، كلا، لا تجيبي. عُدْنَ كلكنّ، أنتِ والأخريات. عُدن بسرعة ألى أنفسكن. عدن إلى بطونكن الرطبة. (يلتفت ناحية أميلي) امضي أنتِ أيضاً، أيتها الصغيرة، مع ينبوعك وصخرته. (يلتفت صوت مدام غونتران) وأنتِ، يا اشبينتي، هلاّ انصرفتِ.

مدام غونتران: لكن لا أريد لك أن تغتمّ، بسبب ما هذرت به كل هؤلاء البلهاوات، أو بسبب الكشف الذي قدمه لك غريب الأطوار هذا. يا غاستون، أقْسِمْ لي على ألاّ تُلحقَ أيّ أذى.

الثور: اطمئني. لن أفعل به شيئاً. (يلبث الثور وحيداً مع ابنه). لن أفعل بك شيئاً. إلا أنّك أنت، قد فعلت بي.

لكن لندع ذلك . ها أنت إذن غدوت الآن كبيراً . الرجل ابن المرأة . فأمّه تُباشره وعشيقاته ينْجزنْه . أنتَ رجل . أنت رجل ناجز .

الابن : أنا راع في الجبل أمسك زهرة بأسناني . سأعود إلى الجبل تحت الكواكب حيث كل شيء نقي .

الثور : إيه! لا تضحكني . فبوسعي أن أقهر الضحك . تريّث قليلاً! فلديّ فكرة ، يا بنيّ . . . إنّها فكرة ثور .

الابن : ولكن ما الذي فعلته حيالك؟ لا تنظر إليّ على هذا النحو . ماذا ستفعل بي وأنت تحمل هذه السكين؟

الثور : إفتح أصابعك . اضغط على المقبض . هل رأيت . أنت تمسك بها . وأنت قادر على ذلك . لقد بقيت في يدك . وضعتُ في يدك مفتاحاً . إنه مفتاح الخزنة . سوف تتحمّل أنت ، يا ولد ، من الآن فصاعداً ، عبء الميزان .

الابن : ولكن ليس من شيء ، بالنسبة لي ، يعدل القمر والهدوء . . .

الثور : لقد! لقد! لقد! لقد لمستَ اللحم الأبيض . فلكَ الميزان والنّصل والمفتاح . ستكد سعياً مخوّضاً في الدم ، وسط القضاة والأرقام . لقد لمست اللحم الأبيض وتُوَيْجاته الحمراء . فالمسه حتى الأعماق . واستمتعت بصحبة

المحاسبة. فامضِ للغوص في دنيا الحسابات. ومن بعد صانعة السجق عليك أن تخرق دكان السجق. كلا! كلا! إحتفظ بهذه السكين. فبوسعك، إن شئت، أن تعلوني بها.

الابن: أبتاه... بابا، حبيبي...

الثور: أما أنا، فوداعاً، إنّني مرتحل. سأكون فقيراً. سأصبح ناحلاً. سأجرّب حظّي بحثاً عن سقف يأويني. وقد أتعاطى تأليف الأغاني، فمن يدري؟

الابن: لكنّك لن تتخلى عن قسائم الضرائب ولا عن البهائم ذوات القرون.

الثور: سوف أتضايق! يبدو أنهم يجمعون عمّالاً في ناحية غارابيت. لأنهم يشقّون قناة للخط الحديدي. وسوف يستخدموني من فورهم. سأقيم مع أترابي في أكواخ خشبية مثل أكواخ زنجبار. قلت لك مثل أكواخ زنجبار! وبعد أن أنتهي من قضيّة زنجبار، سأيمّم وجهي شطر باريس. سيكون حذائي مليئاً بالثقوب. أثناء الليل، سأقف أمام المنازل المشادة بالحجر أتأمّلها وأقول: «يا لكم من بهائم». أما أنت، يا سيدي، فسوف تصبح مستشاراً عاماً. سيكون لديك منجماً من الذهب، وتأكل الاسكالوب. يا روكفلر! ماذا تقترح؟

الابن: لكنك قلت لي من توّك . . .

الثور: كلا . فأنا الآن أتحدث إلى نفسي .

الابن: أنا سأجيبك . إنّ النجوم لا تُقيت أبداً سواءٌ شاهدتها من على الجبل أم من العاصمة . أما أن تقذف بنفسك من علٍ في الاستقلالية أو في الفناء ، فهل تعرف إلى أين سيؤول بك الكلام المعسول؟ بوسعك أن تبيع ربّاطات في المعارض . فمهنة البائع الجوّال فيها حرية وانطلاق .

الثور: الربّاطات ، ورافعات النهدين من علامة سان جورج ، والاسفنج والدبابيس مع كل اللوازم البيئية . إنّ رأيك لصائب ، أيها الخليع . فأنت كريم المحتد خلفاً عن سلَف . وقد جئت لتكون جزّاراً ضخماً مثل الذراع . أما أنا ، فيوماً أكون في ليون وفي الغد تجدني في بارلودوك ، ومن كثرة التجوال . . . والفتيات ، والجداول . . . سأكون مغرقاً في الضحك وأنا أستقبله ، ذلك الفارس الأخير القادم إلى موعد الإنسان ، والذي يقتات باللّحم الفاسد ، الموت .

« ستار »